بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
الدكتور مصطفى الفقي
مدير مكتبة الإسكندرية

قصة المسلمين في الأندلس يحوطها الغموض بدايةً ونهايةً، فلم يُحتكَم إلى العقل في رواية تاريخها، ولم تكن الحقيقة هي غاية من قَلَّبوا صفحاتها، وتأمَّلوا ممالكها ومسالكها، وتحيَّزوا ما شاء لهم يُمنةً ويُسرةً في قراءة أحداث لم يكونوا من صُنَّاعها ولم يُعاصروا أهم فصولها، وعندما جاء مؤرخ استفاء بنور الحقيقة معتمدًا على أدق الوثائق، مسلحًا برؤية تاريخية صادقة، وقوائم لا حصر لها من الوثائق والمؤلفات، في تحقيق تاريخي يقل نظيره، وتوثيق لقوائم من الكتب والمراسلات والتوثيقات، وبمنهجية معرفية صارمة.. عندما يفعل المؤرخ الأسباني الكبير إغناسيو أولاغي Ignacio Olagüe كل ذلك ولا يجد أذنًا صاغية، ولا دار نشر كبيرة أو صغيرة ترغب في طبع كتابه، أو الترويج لمضمونه، أو حتى إصدار صغير محايد يترك للقراء مهمة التقويم وردود الأفعال؛ فإنه لأمر يعجب له أي عاقل محايد!!.

بين أيديكم كتاب وصفه المحققون بأنه «على درجة عالية من الدقة العلمية والتوثيقية والمعرفية، ومسلح ببليوجرافيا نقدية واسعة ومتنوعة ومعقدة جُلها من النصوص القديمة، التي أعاد المؤلف تحقيقها قبل مناقشتها، ثم الاستناد إليها، أو عدم الثقة بمحمولها التاريخي، إنه مُؤلَّف صعب وموجه للمختصين، ليس بتاريخ إسبانيا فقط؛ إنما بتاريخ

الأديان والفنون في أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط»[١]. ورغم كل هذه المزايا فقد تلقى صاحب الكتاب رسائل رفض من خمس دور نشر فحواها اعتذار عن الإصدار، وليس لضيق ذات اليد، أو لتراجع المستوى العلمي للكتاب؛ بل لأن المؤلف تجاوز جدار الصمت، ورفض تنحية الحقائق ليعلن أن العرب لم يغزوا الأندلس، ولم يدخلوها فاتحين، وإنما جاءُوها عبر حراك داخلي ـ اجتماعي وثقافي ـ هيَّأ مناخًا لدخول إسبانيا تَعاونَ فيه الشمال والجنوب من أجل جغرافيا إصلاحية شارك فيها الملايين من أهل البلاد، والآلاف من القادمين لهم معًا من أجل غاية واحدة هي «الأندلس الجديدة» بثقافتها الوطنية المتنوعة، وحضارتها الإسلامية المزدهرة.

أما قصة هذه الترجمة واتصالها بالقارئ العربي فهي إحدى مبادرات مكتبة الإسكندرية التي يحسن تجلية عناصرها بإيجاز شديد، فقد وجدت اللجنة الفنية لمشروع «إعادة إحياء كتب التراث» أن للكتاب أهمية قصوى لما يحمله من حقائق تأتي من مؤرخ ومفكر ومحقق إسباني عن حقبة تاريخية شابها لغط كثير، وأسندت المكتبة مهمة الترجمة إلى الأستاذ الدكتور علي المنوفي أستاذ اللغة الإسبانية بجامعة الأزهر، الذي قام بها بكل جدية ودقة ومهارة، وشاء الله أن تكون آخر أعماله قبل أن يرحل إلى رحاب الله.

لقد كان الهدف من هذه الترجمة إيضاح بعض الحقائق المدفونة في طيات التاريخ:

أولها: تقديم كتاب بالغ الأهمية إلى القارئ العربي في ترجمة دقيقة تؤكد ـ بقلم غربي بصير ـ أن الإسلام دين لا يعرف العنف ولا يقبله، وأن حضارته تكرس قيم العدل والإنصاف.

ثانيها: رفع الظلم عن المؤلف وكتابه؛ فقد ظُلم عندما لم يجد له ناشرًا في بلده أو خارجها، وظُلم في ملخص عربي عمد صاحبه إلى تبسيط الكتاب وتوضيبه وتنقيته بدلاً من ترجمته ـ كما أكد صاحب الملخص نفسه ـ فجاء الإصدار لا يعكس حقيقة فكر المؤلف وقناعاته التي وصل إليها من خلال بحث دقيق.

---

(١) وصْف الدكتور إسماعيل أمين للكتاب الذي كان قد قدم له عرضًا وملخصًا في أكثر من ثلاثمائة صفحة لإصدار برشلونة عام ١٩٧٤.

إن الفكرة المحورية في هذا الكتاب ـ وهي جاذبة ولافتة ـ أن الوجود الإسلامي في الأندلس لم يكن «فتحًا عسكريًّا» أو جهادًا مسلحًا، مبتغيًا تمددًا دينيًّا، بل كان حركة أفكار متصارعة ومتشابكة، تقدمت فيها «الفكرة/ القوة»، التي عمَّقت رؤية العالم للإسلام على أنه دين الفكرة والحضارة بدلاً من أنه دين العنف والقوة، وحقيقة أن العرب لم يغزوا الأندلس من خلال كاتب ومؤرخ لجأ إلى كل الوسائل العلمية في التحقيق والتدقيق، وهي قراءة من المؤرخ إغناسيو أولاغي Ignacio Olagüe جوهرها إنصاف التاريخ بعيدًا عن الأدلجة والتحيز في عالم أراد تصدير فكرة العنف دومًا على الحضارة الإسلامية.

مقدمة
الدكتور علي فهد الزميع
رئيس مجلس أمناء وقف نهوض لدراسات التنمية

لهذا الكتاب قصة لا تخلو من دلالة على توجس الوسط الأكاديمي الكلاسيكي المحافظ من أي مراجعة أو تجديد لرؤيته إلى التاريخ. لقد فشل المؤرخ إغناسيو أولاغوي (١٩٠٣ ـ ١٩٧٤) في إيجاد ناشر لكتابه في إسبانيا، إذ منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٥ تلقى رسائل رفض متتالية من خمس دور للنشر التي رفضت بحثين كان قد أنجزهما، الأول بعنوان «جامع قرطبة» والثاني بعنوان «الثورة الإسلامية في الغرب»، وكلاهما يتضمنان بعض أطروحاته التي سيطورها فيما بعد في كتابه «العرب لم يغزوا إسبانيا».

ولم ينشر له حتى عام ١٩٦٥ سوى كتاب واحد هو «انحطاط إسبانيا» La Decadencia de España وهو الكتاب الذي لقي نجاحاً في الوسط العلمي الأكاديمي، إلا أن جرأة مضامين كتابه الجديد كانت كفيلة بأن تقفل معظم الأبواب التي كان قد افتتحها كتابه الأول. ولهذا سيضطر أولاغوي إلى البحث عن ناشر خارج إسبانيا، فأرسل سنة ١٩٦٦ رسالة إلى المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل ليتوسط له في نشر كتابه. وقد جاء في رسالته المحفوظة في معهد «بيت فيلاسكيز» بمدريد:

«ربما ستفاجأ بأنني لم أنشر هذا النص في إسبانيا، كما فعلت مع أطروحتي حول انحطاط هذه الأمة. لن أكشف لك جديداً، إذا اعترفت لك بأنني بسبب عدم تعاطفي مع النظام، الذي يهيمن كما هو معلوم على الأدب

والنقد التاريخي، حُشرت في زاوية الصمت. في زمن الفاشية كنت أتهم بأنني ليبرالي، واليوم صرت أتهم بأنني كافر مهرطق.

كيف أن العرب ليسوا هم من بادروا إلى غزو إسبانيا، بل إن الإسبان أنفسهم من اعتنقوا الوحدانية قبل الدخول في الإسلام؟!

عندما طلبت دعم المؤسسة الثرية، خوان مارش، لكي تساعدني على الاستمرار في أبحاثي، تم رفض ذلك. فاشتغلت بوسائلي الخاصة، وبموارد رجل الآداب الذي يجب أن يواجه وسطاً معادياً... استطعت في الأخير إكمال كتابي، الذي أرجو التكرم بالمساعدة في طبعه».

وبفضل تدخل بروديل نشرت عام ١٩٦٩ إحدى كبريات دور النشر الفرنسية (فلاماريون Flammarion) كتاب أولاغوي تحت عنوان «العرب لم يغزوا إسبانيا قط» Les arabes n'ont jamais envahi l'Espagne. وبعد أن لقي الكتاب شهرة كبيرة في الوسط الفرنسي، قررت مؤسسة خوان مارتش في سنة ١٩٧٤ أن تطبع النسخة الإسبانية، لكنها لم تستعمل العنوان الفرنسي، بل وضعت عنوانا آخر هو La revolución islámica de occidente، أي ما يمكن ترجمته حرفيا بـ: «الثورة الإسلامية في الغرب».

ولم تكن مؤسسة خوان مارتش متحمسة كثيراً لنشر الكتاب، حيث أنها، وتجنباً لإثارة جدل في الوسط الأكاديمي المحافظ، عرضت نسخاً قليلة للبيع، كما خصصت ما يقارب ٣٠٠ نسخة للتبرع بها لعدد من المراكز الثقافية بإسبانيا. هذا فضلاً على أنها عبرت، في الصفحة الأولى من الكتاب، عن عدم اتفاقها مع أطروحة الكاتب، وهو الأمر الذي يعكس مدى التوجس الكبير الذي رافق سياق صدور الطبعة الإسبانية الأولى.

وتجدر الإشارة إلى أن مؤسسة خوان مارتش لم تعلن عن سبب استبعادها للعنوان الأصلي المثبت في النشرة الفرنسية، إلا أن مجموعة من الباحثين رجحوا أن يعود سبب إسقاط ذلك العنوان هو أن حذر المؤسسة من الانتقادات التي قد يثيرها عنوان «العرب لم يغزوا إسبانيا» في الوسط الأكاديمي الإسباني المحافظ.

كما سيغيب العنوان الأصلي من طبعة عام ٢٠٠٤، التي أصدرتها دار

النشر القرطبية بلورلباي Plurabelle بشراكة مع مجلس إقليم الأندلس بإسبانيا؛ لذا ينبغي أن ننتظر أزيد من أربعين عاماً على صدور الكتاب، أي إلى سنة ٢٠١٧، لكي تستعيد النشرة الإسبانية ذلك العنوان المحذوف. حيث أعيد طبع الكتاب من طرف دار النشر القرطبية ألموثارا Almuzara ممهوراً بعنوان «العرب لم يغزوا إسبانيا».

لكن ما الذي جعل كتاب أولاغوي يثير كل هذا التوجس من طرف التيار المحافظ في التأريخ للوجود الإسلامي في إسبانيا خلال العصر الوسيط؟

لا شك أن وسم الكتاب بـ«العرب لم يغزوا إسبانيا، ثورة الاسلام في الغرب» عنوان مثير لأطروحة مستفزة للوجدان اليميني المحافظ. وقد أراد أولاغوي أن تكون أطروحته هذه انقلاباً جذرياً على كثير من المسلمات التي ركزها التوجه الكلاسيكي في التأريخ لإسبانيا العصر الوسيط، حيث ينتقده بشدة معتبراً إياه قائماً على تصور مؤدلج وقاصر عن تأسيس رؤية واعية قادرة على إعادة قراءة التاريخ الإسباني، وتشكيل هوية إسبانية متسامحة مع ماضيها، لا تشوبها الضغائن العرقية والدينية. إذ يوضح إغناسيو أولاغوي أن استماتة كاثوليكي ويميني إسبانيا بتوهيم الناس بأن ما حصل في القرن ٨ الميلادي هو استعمار إسلامي للأراضي الإسبانية الكاثولويكية الرومانية، راجع إلى قصد ضمني وهو تبرير طرد مسلمي الأندلس في بداية القرن ١٦ الميلادي من طرف الملكان الكاثوليكيان، فيرديناند الثاني وأليزابيث الأولى.

فيصير إذاً توكيد وقوع غزو إسلامي لإسبانيا في القرن الثامن، واقعة تضفي الشرعية التاريخية على فعل الطرد ذاك. وبذلك يكون ما حصل في القرن السادس عشر، مجرد استرداد مشروع لأراضي قد استعمرت من قبل. وهكذا يتجنب الوعي الكلاسيكي العديد من الأسئلة المحرجة حول مدى شرعية طرد المورسكيين من الأندلس.

وخلاصة أطروحة أولاغوي هي نفي حدوث استعمار عربي لإسبانيا، حيث يعتبر أن نشأة الحضارة الإسلامية في الأندلس كانت نتيجة تقبل الإسبان لها، بسبب التقارب الكبير بين العقيدة المسيحية الأريوسية التي كانت سائدة قبل مجيء المسلمين. لأن اعتقاد الإسبان بتلك العقيدة

التوحيدية التي ترفض الثالوث، جعلهم يرون في الإسلام ديناً منسجماً مع تصورهم الاعتقادي؛ مما سهل نفوذه في وجدانهم الديني.

ويؤكد أولاغوي بأن وثائق تاريخ الأندلس أتلفت، وأن كل ما بحوزة القارئ اليوم هي كتابات جاءت متقدمة بعقود عن سنة ٧١١م. لذلك يدعو إلى إعادة قراءة هذه اللحظة التاريخية برؤية ناقدة تأخذ بعين الاعتبار كل ما تبقى من تاريخ إسبانيا الوسيط في مختلف المجالات. وهذا ما يبرر استعانة الكاتب، وهو في خضم بنائه للنسق الحجاجي لأطروحته، بمعطيات تخص حقولاً معرفية جد متباينة كالجغرافيا، والهندسة المعمارية، والإثنوغرافيا، وعلم الحفريات، وغيرها.

هذا ويمتاز النسق الحجاجي للكتاب بمتانة التوثيق والتأصيل العلمي الأكاديمي لأطروحاته المثيرة التي كانت من العمق والجدة بحيث قلبت الكثير من المسلمات التي استقرت في الكتابة التاريخية حول الحقبة الأندلسية.

وإذا كان المناخ العام لإسبانيا في القرن الماضي لم يساعد على انتشار أطروحة الكتاب بل وحاربها وقيد انتقالها، فاليوم نشهد انبعاث روح جديدة تسعى لإعادة إحياء أطروحة أولاغوي واتخاذها مدخلاً لإعادة قراءة تاريخ الأندلس خاصة، وتاريخ إسبانيا عامة.

ينقسم كتاب «العرب لم يستعمروا إسبانيا، ثورة الاسلام في الغرب»، إلى مقدمة وثلاثة أبواب رئيسية، وأربعة ملحقات. أما مقدمة الكتاب فيخاطب فيها أولاغوي قارئه بأسلوب سردي أدبي يدعوه فيها إلى إعادة استكشاف سر هذا الماضي الإسباني المثقل بسرديات أقرب إلى عالم الخيال.

ثم يبادر في الباب الأول إلى بيان «المشكلة التاريخية» التي يسعى الكتاب إلى مقاربتها، محدداً أهم الأسئلة وواضعاً فرضياته التي سيحاول البرهنة عليها لاحقاً.

أما الباب الثاني فعنونه أولاغوي بـ «الثورة الإسلامية» ويعود فيه إلى تاريخ إسبانيا القديم وكيف تشكلت العقيدة المسيحية وطبيعة العلاقة التي جمعت كلا من العقيدة الثالوثية والآريوسية، وظروف ظهور العقيدة الإسلامية وتطورها المجتمعي في إسبانيا.

أما الباب الثالث الذي يحمل عنوان الفن الأندلسي فيدرس فيه أولاغوي المراحل التي عرفها تشكيل معالم الفن الأندلسي، معرجاً بعد ذلك على تقديم جواب عن لغز بناء مسجد قرطبة؛ حيث يرى أولاغوي أنه قد بني قبل مئتي سنة من لحظة الاستعمار المزعومة هذه. وفي نهاية الكتاب يقدم أربع ملحقات يمكن للقارئ أن يستعين بها في مراجعته لمجموعة من الوثائق التي استدل بها الكاتب لتعزيز أطروحته:

يخص الملحق الأول نصوصاً سابقة على القرن الثامن الميلادي، بينما خصص الملحق الثاني لكتاب «أخبار لاتينية مجهولة»، والملحق الثالث لشواهد أثرية، أما الملحق الرابع والأخير فهو عرض مفصل لمحتويات خزانة بمبلونا Pamplona.

لذا التقت إرادة مركز نهوض للدراسات والنشر مع مكتبة الإسكندرية على إصدار هذا الكتاب ليس من أجل نقل كتاب إغناسيو أولاغوي إلى اللسان العربي لتعريف القارئ العربي على الجدل الدائر في الوسط الأكاديمي الإسباني فقط، بل من أجل تقديم إضافة حقيقية إلى حقل الدراسات العربية المتخصصة في تاريخ الأندلس، وهذا سيكون له أثر معرفي مهم في إغناء رؤيتنا إلى تلك الحقبة المهمة من تاريخ الإسلام.

مقدمة

عندما ينتهي السائح من مشاهدة صحن «**شجر البرتقال**» ويدخل إلى الجزء المسقوف من جامع قرطبة عبر العقد الحدوي الكبير الذي يتوج المدخل، سرعان ما يجد أنه أمام مشهد لا نظير له؛ أي: أمام غابة من الأعمدة الموزعة بطريقة منتظمة. وبعد أن تغمره الدهشة من جراء هذه الجاذبية القوية ـ التي تشده إلى المزيد من الدخول إلى عمق المسجد ـ يشعر بالمفاجأة مع الخطوات الأولى، وكأن هناك هواء غير عادي ينفث فيه، يكاد يلمس وجهه، وكأنه الروح الغامضة لدار العبادة هذه، ورغمًا عنه يشعر أنه مجذوب نحو عالم مجهول، الأمر الذي يمكن أن يشل القدرة على التفكير، لكنه يُدهِش الروح الحساسة واللماحة.

يشعر المرء بالحيرة، وسرعان ما يدرك عدم قدرته على الربط بين الأفكار المتعلقة بهذه الانطباعات القوية والجياشة وبين تجربته البصرية أو بين ما يتذكره من قراءاته. وبشكل غير واعٍ تمامًا (هذا طبقًا لحصافته) يتخيل أنه لا يمكن له أن يقيم علاقة بين ما يتأمله وبين المنجزات الكبرى للحضارات القديمة، والتي يحتفظ بها في ذاكرته في شكل صورة لا تُمحى؛ ها هو البانتيون Pantheon وسانتا صوفا والكاتدرائيات القوطية...

ولما كان معتادًا منذ طفولته على حساب الأبعاد الخاصة بمبنيما، عند دخوله، من خلال نظرة بسيطة، في عملية حدس سريع، يدرك عندئذ عدم قدرته على قياس أبعاد ما يرى؛ فإذا ما تقدم تهرب الأعمدة، كما أن مطاردتها تجعلها تتوه في الأفق، ولا يمكن للبصر أن يستقر في أي مكان ليحدد الأبعاد الخاصة بالمكان، ولا يمكن لأي نظرية هندسية لإقليدس أن تُرضي شعوره الحسّي؛ إنه محاط باللانهائي أينما ذهب، حيث تتبدى الأشياء نفسها في كل مكان، وكأنها منعكسة في مرايا متعددة.

وعندما يتخذ الزائر قراره، نجده يواجه أبدان (هياكل) الأعمدة التي تحاصره من كل صوب، وهي أبدان أعمدة ذات أسلوب توسكاني Toscano، وعادة ما تكون من الرخام الأبيض الأملس، وبعضها مجزّع Onice؛ وأحيانًا ما تكون ذات شكل سليم أو مجدولة Entorchadas، كما أن تماثل ارتفاعاتها ورشاقتها يعطيان انطباعًا مشابهًا للبلاطات (الأروقة) التي تتبدّى أمام ناظريه، وسرعان ما يدرك أن التيجان مختلفة، لا شك أن هذا يرجع إلى أنها ترتبط بجذور مختلفة، حينئذ يرفع ناظريه ويدرك أنها تحمل عقودًا حدوية تتوالى من عمود لآخر في لوحة طريفة ونزقة دون أن يكون لها هناك بُعد نفعي ظاهر، بينما تقوم في الواقع بدور البنية الهيكلية التي تساعد على الحفاظ على المبنى ككل، والذي يتسم بالهشاشة الشديدة.

وفي الجزء الأعلى من هذا؛ أي: فوق الدعامة Contrafuerte التي عليها تتكئ العقود الحدوية، نجد أعمدة خفيفة، وهي عبارة عن أعمدة تقوم فوقها عقود أخرى، لكن هذه الأخيرة نصف أسطوانية، حاملة خشب السقف وأعمال النجارة الأخرى.

يتأتى ذلك عن الرشاقة، التي تنبع من الكتل الحجرية البيضاء، في عملية تبادلية مع الآجُرّ الأحمر بنفس السُّمك، وبذلك يتشكل العقد الحدوي من لونين، ثم المنحنى الحاد الذي عليه أشكالها، وكذا المنظر من الجو للعقود المتراكبة، انطباع لا يتصوره المرء.

يشعر الزائر بالدهشة ويتقدم أكثر في هذه الغابة المقدسة؛ ثم يتوقف عند الفراغات الخاصة في دار العبادة هذه، وهو في هذه الحالة لن يعرف (من حيث المبدأ) التعبير عن إعجابه، اللَّهُمَّ إلا إذا كانت اللامبالاة لم تؤثر في وعيه بالفن الجميل والمُتع التي تثري الروح، وعندئذ لن تكون بين شفتيه إلا كلمة واحدة: يا له من أمر غريب!.

وفي خضم دهشته تبزغ على الفور من أعماق وعيه فكرة تقول: «وأخيرًا! ها هو الشرق الجميل هنا، وهو شرق سحري، لا يمكن بلوغه». وعندما يبتعد عن حاجاته اليومية البسيطة يشعر هذا الزائر الغربي بالرغبة في التفلسف، وأمام أسطورية المشهد يصبح ردّ فعله هو الانغماس في حلم لذيذ بفكره، وكذلك نظرته الزائغة بين الأعمدة...

يا لها من متعة أن يتمكن المرء من إدراك صوفية الإسلام هذه! وهي صوفية شديدة الغموض، لدرجة أن المؤمنين قد لا يشعرون بها، عندما يتركون أغطية الأحذية وقت دخولهم المسجد؛ أليس هو الشيء نفسه الذي يحدث بمناسبة احتفالية التعميد عندما يدخلون برؤوسهم مكشوفة؟!.

وحقيقة الأمر فإنه رغم أن هذه الأسئلة تبقى بلا إجابة فورية، وبدون أن يشعروا، تطرأ على أذهانهم أفكار أخرى؛ هنا نجد أن ذكريات العرب سوف تكونُ جزءًا، دون أن ندري، من تيار التداعيات الذهنية، وهي ذكريات بدون أية قيود وبكامل حريتها.

وعلى هذا؛ فبعد أن تذكر تلك الفتوى المدرسية القائلة بمغامرة كارلوس مارتين الذي قام بإيقاف الموجة العربية، لن يسعه إلا أن يشعر بنوع من الإعجاب بهؤلاء الناس الذين خاضوا مهامَّ كبيرة رغم كل شيء. وسوف يتذكر الجيوش المشارقية الغازية لنصف العالم التي أقام أحفادها على هذه الأرض ـ الأندلس ـ التي تدين لهم بكل هذه الحضارة العظيمة.

وبعد حالة الانفعال ـ وربما الارتعاش ـ ربما لن يطوف بخاطره أن باطقة Bática ـ إشبيلية ـ كانت أيضًا مسرحًا لحضارة أخرى، ومهدًا لأباطرة روما، وأن قرطبة ـ مدينة مسجد قرطبة ـ كانت كذلك قبل كل من الفيلسوف سنيكا ولوكانس.

لكن، يا للهول الذي كان سيصاب به هذا المسافر لو أن أحدًا قطع عليه هذه اللحظات الحالمة والمستغرقة، وأسرّ إليه أن قد حانت ساعة الاستيقاظ! العرب لم يقوموا بغزو هذه المدينة، ومن حقائق الأمور أنهم لم يبنوا هذا الأثر الرائع، وأن ذاك الآخر لم يكن إلا حشوًا للدماغ من خلال عملية تعليم عفا عليها الزمن.

وعلى هذا؛ فإن فكرة أسطورة الفروسية العربية المجيدة، سواء تعلق الأمر بالفارس أو الفرس، التي تتوغل وتجرف كل ما أمامها مثل رياح السَّموم تكتسح سحابة من الرماد، أصبحت ثابتة في الأذهان رغم أن لونها أصبح باهتًا بعض الشيء، بناء على معرفة دقيقة بالتاريخ.

وحتى البحث الذي نقوم به، وسيرًا على درب المحللين المسلمين وكتّاب الحوليات المسيحيين، نجد أنهم صدقوا ـ بلا مواربة ـ بوجود تلك الموجات من الجراد التي حلّت على الغرب؛ وطبقًا لهذه الرواية فإن هؤلاء البدو الرّحل جلبوا معهم حضارة تطورت بشكل مذهل في جنوب شبه جزيرة أيبيريا، وبالتالي فإن وجود جامع قرطبة لا يمثل أية مشكلة.

لم يتكشف غموض أي معضلة، وهنا فإن ما يلفت انتباه السائح، في معرض الزيارة التي يقوم بها، هو الاتصال المفاجئ بما هو إسلامي، وهو الأمر الذي يجهله الغربيون؛ فالمسجد ينسب إلى الفن المشرقي، وهو ذلك الجمال الغريب لذلك الأثر العجيب، كما تنسب إلى دين محمد تلك المتعة الصوفية التي تنبع منه.

بدأ رجال آثار من الإسبان في نهاية القرن الماضي عمليات ترميم كنائس كانت شُيدت على أيام القوط، كانت إحداها مكرسة للقديس يوحنا المعمدان وتقع في بلدة بانيوس دي ثرّاتو (Venta de Banos B. de Cerrato) شيدت عام ٦٦١م على يد ريكيسوينث Rescesvinto، استنادًا إلى نقش كتابي يوجد في منطقة التقاطع أمام البلاطة الرئيسة.

كان الأمر لا مراء فيه، فتاريخ بنائها يعود إلى فترة أقدم من الغزو العربي المزعوم عام ٧١١م؛ ومع هذا فتلك الكنيسة كانت تتوفر على عقود حدوية منيعة؛ وسرعان ما تم العثور في كافة أنحاء شبه جزيرة أيبيريا على بعض العقود من هذا الصنف تتسم بالجمال الذي عليه العقود القرطبية و. . . لم تكن إسلامية. عُثر على مثل هذه العقود حتى في فرنسا على شواطئ نهر لوار Loire وهي المنطقة التي بلغها العرب، طبقًا للمقولات المتداولة.

وعمومًا كانت تجري في أيامنا هذه محاولة التأكد من وجود عقود حدوية ترجع إلى فترة زمنية سابقة على العصر الميلادي، ومعنى هذا يمكن متابعة تطورها منذ تلك الأزمنة السحيقة حتى ظهورها وتجليها في عصر الخلافة القرطبية.

ها هي تتهاوى واحدة من الأساطير المتعلقة بالتاريخ الغربي؛ فالعقد الحدوي الذي أدت انحناءاته العجيبة إلى مثل هذا الصنف من الإبداع المغرق لم يأتِ من المشرق على يد العرب الغزاة.

نذهب إلى أبعد من هذا، وهو أنه كلما زادت الدراسات التي بدأت في حقل فن الحضارة العربية، نلمح أن المبادئ المعمارية المستخدمة في بناء جامع قرطبة لا توجد لها إلا علاقات ضئيلة مع آسيا البعيدة، كما أن العقد الحدوي يتبدى، ويؤكد أن هذه التقنيات القديمة التي كانت تُرى على أنها أجنبية إنما تنسب إلى الموروث المحلي الأيبيري والروماني والقوطي، لكن كانت المشكلة تتعقد بسبب ما يلي:

أن هذا المصلَّى شيده الرجال من أجل الرجال؛ فالمهندس المعماري الذي رسم مخططاته لم يطلق العنان لخياله ليُرضي طموحه أو حاجته لعمل إبداعي فني. وبعيدًا عن التقليل من شأن الجوانب الثقافية ـ نقصد عكس ذلك تمامًا ـ يجب أن نعترف، مع هذا، أنه سخر قدراته لخدمة فكرة عليا ألا وهي البعد الوظيفي الذي من أجله تم تشييد هذا المبنى والإنفاق على عمليات بنائه.

نقولها بشكل قاطع، وهو أن هذا المبنى شُيد لإقامة شعائر دينية، لكن يكفي هنا أن يتجول المرء في هذه الغابة من الأعمدة ليدرك على الفور أن هذه الطقوس الدينية لا تنسب للديانة الإسلامية أو المسيحية، ذلك أن التكوين الداخلي لهذا الأثر لم يتم إعداده للقيام بممارسة الشعائر المذكورة لهذه الديانات.

وحتى يقوم المسلمون بركوعهم وسجودهم بشكل جماعي ودفعة واحدة كانوا في حاجة إلى صحن مثل ذلك الذي كان يوجد في منزل الرسول؛ وبالتالي كان يكفي أن يكون هناك فراغ مكشوف، لكنه مسقوف يسمح بأن يقف المسلمون في صفوف طويلة، مشكلين بذلك صفًّا واحدًا يتمكنون من خلاله من متابعة الإمام الذي يقف أمام الجميع متوجهًا إلى المحراب؛ أي: ذلك المكان المقدس الذي تحفظ فيه نسخة من القرآن.

ومن ناحية أخرى فإن الطقوس الدينية الكاثوليكية تتطلب فضاءً واسعًا مسقوفًا؛ حيث يمكن للمسيحيين متابعة كافة خطوات القداس الذي يُقام. نجد أنه في كلتا الحالتين تجري الطقوس الدينية سيرًا على مبدأ واحد وهو الرؤية البصرية؛ وهنا فإن الطقوس الدينية بهذه الطريقة يمكن أن تساعدنا على فهم السهولة الشديدة التي جعلت المسلمين يتخذون الكنائس

المسيحية مكانًا لعبادتهم دون الحاجة للقيام بتعديلات معمارية كبرى في بنيتها، إذ كانت تكفيهم بعض الإضافات القليلة لتحويل بازيليكا إلى مسجد، ومن الأمثلة الكلاسيكية على ذلك ما نراه في دمشق حيث نجد المنطقة المسقوفة في المسجد الكبير ما زالت تحتفظ حتى الآن بالبنية التي كانت تتطلبها الطقوس الدينية المسيحية عندما كان المبنى تحت بركة القديس يوحنا المعمدان.

لكن الشيء نفسه لم يحدث في قرطبة، فكثرة الأعمدة وتحولها إلى غابة جعل الكثير من المسلمين والمؤمنين يعانون كثيرًا، ومنها إمكانية أن يتابعوا جميعًا، وفي وقت واحد، ما يقوم به الإمام، بينما يقوم الآخرون (المسيحيون) بالمتابعة الروحية لمن يقوم برئاسة القداس، حيث أصبح هذا وذاك غير مرئي بسبب الأعمدة.

ولهذا السبب؛ أي: التكوين الداخلي للمبنى، تم اتخاذ النهج الخاص بالبنية المعمارية للمسيحيين المتمثلة في البازليكا؛ حيث تم تصميمها بحيث يتمكن المصلون في مختلف الأماكن من متابعة تفاصيل الطقوس المقامة: أي: رؤية «تقديس العاهل» وهو يقوم بأداء وظيفته، وجرى فرض هذا الرسم المعماري ابتداء من القرن الرابع الميلادي؛ لأنه يسمح للحضور بمتابعة ما يحدث وأداء الصلوات مع الكهنة؛ هذا الوضع كان مستحيلًا في حالة وجود غابة من الأعمدة.

ها نحن الآن ندرك السبب في أن جامع قرطبة لم يتحول أبدًا إلى كاتدرائية رغم العدوان الفني الذي تعرض له على يد الإمبراطور كارلوس الخامس؛ بل تحول إلى مجموعة من «المذابح الصغيرة» Altares؛ واستنادًا إلى كلِّ ما سبق نستنتج أن المسلمين والمسيحيين تمكنوا من توظيف دار للعبادة طبقًا لاحتياجاتهم، وهو مبنى أقيم لإجراء الطقوس الدينية كل حسب ديانته.

سوف نعود لتناول هذه القضية في الباب الثالث من هذا الكتاب في معرض دراسة تاريخ جامع قرطبة، أما الآن فسوف نكتفي بضرورة الردّ على سؤال يلح بقوة، وهو: إذا ما كان المبنى الأول لدار العبادة هذه مشيدًا لغرض آخر غير الطقوس الإسلامية أو المسيحية، فلأي طقوس أو ديانة إذًا

كان مكرّسًا؟ ما هي الفكرة وما هي شعلة الإلهام التي كانت وراء قلم من قام برسم هذه العقود الغريبة؟.

على أية حال، نقول: إن مَن يدفع الثمن هو الذي يفرض فكرته، وما على الفنان إلا أن يفسرها وينفذها. ما هي القوة التي كانت تتمتع بها هذه النفحة حتى يكون نتاج هذا التعاون تلك الثمرة العبقرية الفريدة التي جاءت من لدن البشر؟.

لم يُجب أحد عن هذا السؤال؛ لأنه لم يقم أحد بطرحه حسب علمنا. لكن لا مناص من مواجهة الموقف: ها هو العمل أمامنا؛ وعندئذ يكفي أن نفكر في صعوبات تمثله وبنائه وتفسير وجود هذه الغابة من الأعمدة، وأنه يخفي وراءه لغزًا تاريخيًّا. لم يقم أحد حتى أيامنا هذه ببذل جهد لتفسير الأمر؛ ومن جانبنا؛ أي: من خلال الصفحات القادمة، سوف نكرس جهدنا للكشف عن مكونات هذا اللغز. وسوف نقتصر الآن فقط على القول بأنه يدخل في جزء من المشكلات الكبرى في التاريخ العالمي.

ولتباعد الأزمنة والجهل والحميّة الدينية فإن ذلك الجزء من الماضي الذي رأى الإسلام ينتشر كالنار في الهشيم على شواطئ البحر المتوسط، جرى وقفه وكأنه مدينة قديمة، تحت الأطلال المتراكمة، وتحت ركام من الأكاذيب والأساطير والمقولات التراثية الزائفة.

وطبقًا لتفسير أولي للنشاط الإنساني، تم تصور التوسع الإسلامي لا كثمرة حضارة وإنما كثمرة غزوات حربية جبارة وكاسحة. فها هي اللغة والدين والثقافة لم يتم فرض أي منها بقوة الحجة؛ بل بقوة السيف التي قضت على المحاربين المعارضين، وبقوة النيران التي أدخلت الرعب في قلوب السكان العزّل.

وبنمطية شديدة، جرى وصف غزو إقليم البربر Berbería وشبه جزيرة أيبيريا وجنوب فرنسا، إضافة إلى أقاليم أخرى لا تتوافق مشاكلها مع السياق الذي يرتبط به هذا الكتاب؛ بأننا أمام جيوش عربية، ذات أعداد لا يمكن تخيلها، قامت بالسير في كل مكان وكأنها موجة مدّ قوية؛ أي: أن ذلك كان تحديًا للجغرافيا والحسّ العام.

حانت ساعة استبعاد الركام المتراكم على مدار القرون، والعمل على إبراز الخطوط العامة للأحداث، وعندئذ سوف يكون من الممكن أن نعرف الدافع الكامن وراء هذه الحيوية الفريدة التي ظهرت في تلك الأزمنة الغامضة، لكنها شديدة الثراء. وهنا فإن لغز جامع قرطبة تستبين معالمه، وها هو فهم حميم لمرحلة ما بعد السّكْرة التي يمكن أن يعيشها البشر، والتي يمكن فهمها، إنه ضوء جديد سوف يوضح تطوّر البشرية.